دلالة الألوان ومعانيها البلاغية في الشعر العربي

الباحثة: د. ردينة القاسم

كلية: الآداب – جامعة: البعث

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى دراسة الألوان في الشعر العربي، والكشف عن دلالاتها على مستوى المبنى والمعنى.

استُهِلَّ البحث بتعريف اللون لغةً واصطلاحاً، ودراسة أنواعه، وبيان قيمته الجمالية، وتحديد وظيفته الدلالية عن طريق الجانب التطبيقي من خلال تحليل الشواهد الشعرية التي تتضمن الألوان بمختلف أنواعها.

خُتِمَ البحث بنتائج علمية توضح أهمية اللون في عملية التذوق الفني والدلالي والجمالي.

الكلمات المفتاحية: ألوان، بلاغة، دلالة، شعر، عربي.

The rhetoric of colors and their

Research summary

Implications in arabic poetry research summary:

This research seeks to study colors in arabic poetry, and to reveal their meanings at the level of structure and meaning.

The research began with difining color linguistically and idiomatically, studing its types, explaining its aesthetic value, and defining its semantic function through the applied side by analyzing monthly evidence that includes colors of all kinds.

The research concluded with scientific results that show the importance of color in the process of artistic, semantic and aesthetic taste.

Key words: colors, rhetoric, semantics, poetry, arabic.

مقدمة:

يُعدُّ اللون سمة مميزة من سمات الحياة الذاتية والاجتماعية والجمالية؛ لأنّه أسلوب تعبيري عن انفعالات الناس وأفكارهم ومشاعرهم وخواطرهم، بوصفه يملك قدرة غريبة تكشف شخصية الإنسان ونشاطاته الذاتية، فهو قوة إيحائية لها دلالات مباشرة ترتبط بمفهومات جمالية ورمزية وتعبيرية، وهذا ما جعله مُتنفساً للشعراء الذين يعبّرون من خلاله عن كوامنهم الروحية وتجارب الذات الإنسانية؛ كما يُمثّل اللون أهمية كبيرة في حياة الإنسان، لما له من دور عظيم مؤثر في حياتنا اليومية، فهو موجود في الملبس، والذوق، والشعر والفن، ويُثير انتباهنا بشدّة؛ لأنّه يؤثر في الجهاز العصبي، بما يحمله من دلالات نفسيّة واجتماعيّة، وفنيّة، وثقافيّة، ورمزية، وتتجسّد القيمة الفنية والجمالية والنفسية للألوان عن طريق استخدامها في مُختلف نواحي الحياة، وتظهر بلاغة اللون بما تتضمنه من أساليب بيانية وبديعية متنوعة الدلالات.

مشكلة البحث:

تأتي صعوبة البحث من اتساع موضوع الدراسة، وكثافة الألوان وتشابكها فيما بينها، إضافة إلى عدم إعطاء دلالة الألوان حقها من الدراسة الوافية التي تستحقها إلا فيما ندر من الألوان المشهورة، وإهمالهم دلالة بعض الألوان النادرة.

أهمية البحث والجديد فيه:

تكمن الأهمية العلمية للبحث في دراسة الألوان دراسة دلالية عميقة مع الولوج في إمكاناتها الإيحائية في الشعر العربي، تلك الإمكانات المؤثرة في القيم الروحية عند تذوق جماليات الشعر العربي، إضافة إلى امتزاج هذه الألوان ببعض الفنون البلاغية المتنوعة، وتوظيف الدلالة اللونية توظيفاً باطنياً معبّراً عن الذات الإنسانية.

أهداف البحث وأسئلته:

تؤدي دراسة الألوان في الشعر العربي إلى توضيح مفاهيم جمالية ودلالية ابتكرها الشعراء عند متابعة التغيرات الدلالية لبعض الألوان حسب ما يقتضيه السياق الشعري، فضلاً عن كشف قدرتها على إنتاج الجماليات التي لا تستطيع الدراسة الأدبية معرفة كوامنها، وإنما يمكن الوصول إليها عن طريق معرفة الدلالات النفسية والاجتماعية والرمزية التي يهدف إليها كل لون من هذه الألوان.

ويتبادر إلى الذهن مجموعة من الأسئلة، نذكر منها:

1-ما مدى أهمية الجانب التطبيقي لدراسة الألوان في الكشف عن شخصية الإنسان وموضوعات الحياة بما يحمله من دلالات وإيحاءات مختلفة؟

2-هل ساهم دمج فنون البلاغة مع الألوان بإثراء رصيد البلاغة في الشعر العربي؟

منهج البحث:

تم اعتماد المهج التحليلي الوصفي بوصفه المنهج الأقرب لتحقيق أهداف الدراسة.

فرضيات البحث وحدوده:

كل لون من الألوان المدروسة له وظيفة دلالية مجازية جمالية تساعد في الولوج ضمن كوامن الذات الإنسانية.

الدراسات السابقة:

1-دلالات الألوان في شعر نزار قباني، إعداد: أحمد عبدالله محمد حمدان، إشراف: يحيى جبر وخليل عودة، قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول

على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2008م.

2-دلالة اللون في الشعر النسوي العراقي المعاصر، م.م: فرح غانم صالح حميد البيرماني، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، الأستاذ، العدد (203)، 1433هـ-2012م.

3-اللون ودلالته في القرآن الكريم، إعداد: نجاح المرازقة، إشراف: حسن الربايعة، رسالة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير، جامعة مؤتة، 2010م.

4-جمالية اللون ودلالته في الشعر العربي المعاصر، قراءة في ديوان بدر شاكر السياب، أطروحة مقدمة لنيل الدكتوراه الطور الثالث مشروع النقد الأدبي الحديث والمعاصر، إعداد: سويزف فريدة، إشراف: بودالي التاج، جامعة جيلالي ليابس، 2017م.

مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائية:

اللون لغةً:

اللون: "هيئة كالسواد والحمرة، ولونته فتلوّن، ولون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره، والألوان: الضروب، واللون: النوع، وفلان متلون إذا كان لا يثبت على خلق واحد"[1].

اللون اصطلاحاً:

إنّ الشعر العربي له علاقة وطيدة باللون منذ أقدم العصور، فهو يُصوِّر مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية بوصفه لغة تعبيرية لها دلالات نفسية مؤثرة؛ وذلك لأنَّ "ألوان

[1] لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (711هـ)، دار صادر، بيروت، مادة (لون).

الأشياء وأشكالها هي المظاهر الحسية التي تحدث توتراً في الأعصاب وحركة في المشاعر، إنّها مُثيرات حسيّة يتفاوت تأثيرها في الناس، لكنّ المعروف أنّ الشاعر – كالطفل– يحب هذه الألوان والأشكال ويحب اللعب بها. غير أنّه ليس لعباً لمجرد اللعب ، وإنّما هو لعب تدفع إليه الحاجة إلى استكشاف الصورة أولاً، ثم إثارة القارئ أو المتلقي ثانياً، فالشعر إذن ينبت ويترعرع في أحضان الأشكال والألوان، سواء أكانت منظورة أو مُستحضرة في الذهن، وهو بالنسبة للقارئ وسيلة لاستحضار هذه الأشكال والألوان في نسق خاص، إنّه تصورات تستمتع الحواس باستحضارها"[1]، فاللون هو الشعور الذي نستطيع من خلاله أن نعبّر به عن ذاتنا بما يتضمنه من معانٍ ورموز ودلالات متنوعة.

يتعلّق اللون بما يحمله من دلالات نفسية متصلة بحياتنا اليومية؛ لأنّ "اللون موسيقى الوجود وهبة الله للحياة، فكل شيء فيها يأخذ لوناً، فالحب أحمر، والنقاء أبيض، والكراهية صفراء، والظلم أسود، والرومانسية بنفسج، فما أروع العاشق حين يرى الكون مُتناغماً في ألوانه حين يعزف لحن الحياة والخلود، حتى الإنسان يتلون أيضاً، فالحسود عينه صفراء، والغاضب عينه حمراء، والكريم يده بيضاء، وكذلك الأيام تتلون، فاليوم الجميل نبدأه بالبياض ..."[2].

أمّا من الناحية العلمية فإنّ اللون الأبيض يُمثّل "الضوء الذي ما كانت رؤية الألوان ممكنة من دونه، فكلّ الألوان مُتضمنة في الضوء الأبيض، فهو مكوّن من حزمة من الأشعة، يمكن أن تحلل بواسطة منشور"[3].

---

[1] التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، الطبعة الرابعة، ص59–60.

[2] سيكولوجية الألوان "دلالات التفضيل لدى العاديين والمرضى النفسيين والفئات الخاصة"، خالد محمد عبدالغني، الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2015م، الأردن، ص13.

[3] اللغة واللون، أحمد مختار عمر، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997م، ص111–112.

اللون الأبيض:

تتفق جميع الحضارات باختلاف بيئاتها على دلالة اللون الأبيض، فهو يرمز إلى الخير والتفاؤل، لِما له من علاقة بالنقاء، والصفاء، والنور، والإشراق، والأمل، والحياة، فالأبيض "لون تام ومُكتمل، يختلف فقط في تدرجه- من الكامد (البارد) إلى اللامع- تارة بمعنى الضباب، وتارة هو حصيلة الألوان، يرتكز أحياناً عند بداية أو نهاية الحياة النهارية والعالم المعلن، وهذا ما يمنحه قيمة مثالية"[1]، وهو لون مريح للنظر بوصفه "أول الألوان الموسومة بالفئة الباردة التي تثير الشعور بالهدوء والطمأنينة"[2].

وقد حمل هذا اللون دلالات مختلفة من خلال امتزاجه بالفنون البلاغية، كما في قول امرئ القيس حين يُعدّد مناقبه مُفتخراً بنفسه وأفعاله:

وبيضٍ منعتُ، وبيضٍ سلبتُ وبيضٍ كنفتُ، وبيضٍ كفيتُ[3]

دلّ الجناس التام[4] على معاني اللون الأبيض الذي تكرر أربع مرات في بيت واحد، فقصد الشاعر في عبارة (وبيضٍ منعتُ) النساء الحسناوات الجميلات ذوات البياض الساحر اللواتي منعهنّ عنه، أما في (وبيضٍ سلبتُ) فتعني السيوف، وذلك للدلالة على شجاعته، فذكر كلمة بيض بمعنى السيوف؛ لأنّه يرمز إلى القوة والشهامة والرجولة، فتغنّى العرب ببياض السيوف لما لها من رموز فكرية تمثّل صوراً شعرية جمالية من

[1] الألوان (دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، دلالتها)، كلود عبيد، مراجعة وتقديم: محمد حمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1434هـ، ص53.

[2] الإضاءة المسرحية، شكري عبدالوهاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص85.

[3] ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، 1389هـ، ص322.

[4] "الجناس التام هو: "أن تكون الكلمتان اسمين أو فعلين"، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري (654هـ)، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، لجنة إحياء التراث، الطبعة الثانية، 1995م، 105/1.

خلال ألوان السيوف الناصعة البياض، ويُشير في (وبيضٍ كنفتُ)إلى النساء اللواتي جعلهنّ في كنفه، أمّا في قوله (وبيضٍ كفيتُ) أشار إلى النساء اللواتي لم يُعرض عنهنّ، فكرّر كلمة (بيض) التي تدلّ على النساء لما يتمتّعن به من بياض ناصع يُثير الانتباه ويُلفت الأنظار بسبب قوة الصفاء والنقاء الذي ساهم في تحويل الصورة البصرية بقيمها الجمالية إلى صورة ذهنية تُريح النفس.

ويحتمل اللون الأبيض معانٍ مُختلفة عن الدلالات السابقة، فيخرج إلى معانٍ جديدة يدلّ عليها اللون المذكور في سياق الكلام، وهذا ما نجده عند الشاعر كثير عزة في قوله:

كما مال أبيضُ ذو نشوةٍ بِصَرْخَدَ باكرَ كأساً شَمولا[1]

وقد ورد اللون الأبيض بمعنى كريم، فخرج هذا اللون عن معنى النقاء والطهارة وغيرها إلى معنى الجود، وهو أسلوب بلاغي استخدمه الشاعر كناية عن الكرم، فعدل عن التصريح بهذه الصفة ونقلها من المعنى الظاهر إلى المعنى المقصود، فالمعنيان الحقيقي والمجازي متناسبان مع بعضهما؛ لأنّ الشاعر لم يأتِ بصفة الكرم مباشرةً، وإنّما كنّى عنها باللون الأبيض، وفي هذا دلالة على مقدرته الفنية والبلاغية.

ويتكرر اللون الأبيض أيضاً في بيت شعري واحد حاملاً دلالات مختلفة ومتنوعة، وفي ذلك دليل على مقدرة الشاعر ووعيه الفني في استخدام الألوان بمعانيها المختلفة، فهذا المتنبي يمدح صديقه مُستخدماً فن الجناس التام، في قوله:

وما عَدِمَ اللاقُوك بأساً وشدّةً ولكنّ مَنْ لاقَوا أشدُّ وأنجبُ

ثناهم وبرقُ البيضِ في البيض صادقٌ عليهم وبرقُ البيض في البيضِ خُلَّبُ[1]

[1] ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه: إحسان عباس، نشر وتوزيع: دار الثقافة، بيروت، 1391هـ، ص392.

إنّ المحاربين الذين جاؤوا لملاقاتك في ساحة القتال لم يعرفوا القوة والشجاعة إلا عند مواجهتك؛ لأنّهم يعلمون أنّك الأقوى والأذكى والأشجع، وذلك من خلال ردهم خائفين لدى رؤيتهم ذلك البطل الشجاع حاملاً سيفه الأبيض الناصع في الخوذ، أما سيوفهم البيض فلا تفيدهم شيئاً؛ لأنّها كالبرق الكاذب الذي لا مطر فيه.

استخدم فن الجناس التام في تكرار لفظ (البِيض) وتعني السيوف، أمّا (البَيض) فتعني الخوذ التي تتخذ معنىً مُغايراً مُتصلاً بوشائج التنغيم من خلال العلاقات المتداخلة بين الألفاظ المتجانسة التي يجمع بينها ترابط لغوي ينتج عنه بعداً إيقاعياً وجمالياً يحقق قوة في الانفعال الوجداني الصادر عن التنغيم الموسيقي القوي الذي يُشعِرُنا بوقع السيوف وشدّة القتال.

وقد يحمل اللون الأبيض دلالات سلبية تدل على الحزن والتشاؤم، فنجد ذلك في شعر المتنبي عندما ينعي فترة الشباب الذي لن يعود أبداً، ويتحسر على كل يوم مضى:

وما ماضي الشباب بمُستَرَدٍّ ولا يومٌ يمرُّ بمُستعادِ

متى لحظت بياضَ الشيبِ عيني فقد وَجَدْتهُ منها في السواد[2]

يتأسف المتنبي على مرحلة الشباب فيتشاءم من قدوم الشيب الذي يذكّره بدنو الأجل، فعندما ترى عين الشاعر منظر الشيب المُغطّي شعره يتحول سواد عينه إلى بياض أيضاً؛ فتعمى عينه لدى رؤيته ذلك، وكأنّ بياض الشيب حلّ مكان سواد العين فعمي، وهذا سبب نفسي يُعاني منه الشاعر.

[1] ديوان المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1403هـ، ص469.

[2] ديوان المتنبي، ص85.

لقد حمل الطباق[1] بين (البياض والسواد) طاقة حركية عالية توضح اختلاف الدلالات، فقد أصبح (البياض) نذير شؤم وضعف، و(السواد) رمزاً للشباب والقوة، وهذا يجعلنا نقف أمام ثنائية ضدية (البياض والسواد) أي (الضعف والقوة).

رسم الشاعر صورة مخيفة سيطرت على أعماقه حين أسقط لون البياض على سواد عينيه فعمي؛ لأنّ البياض موت وفناء، أمّا الشباب يدلّ على الإشراق وقوة الذهن، وقد جعل الشاعر للون الأبيض دلالة سلبية حين عادل البياض العمى حسب نفسية الشاعر عندما حلّ البياض مكان السواد؛ فسبب العمى الذي يعبّر عن معاناة الشاعر وعذابه.

اللون الأسود:

"رمز الحزن والألم والموت، كما أنّه رمز الخوف من المجهول والميل إلى التكتم"[2]، فاللون الأسود يدلّ على الكآبة والتشاؤم، أمّا اللون الأبيض فهو يدلّ على الخير والتفاؤل والطمأنينة والسلام، وقد يخرج كل من اللونين عن المألوف إلى دلالات مغايرة لما ذكرناه، وهذا ما نجده أيضاً في شعر كعب بن زهير الذي تضمن شعره فن التدبيج بما يحمله من معانٍ مختلفة عند مقارنته فوارق السواد والبياض، فيقول:

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ولا أرى لشباب ذاهب خلفا

عاد السوادُ بياضاً في مفارقِهِ لا مرحباً ها بذا اللون الذي رَدِفا[3]

[1] الطباق هو: "الجمع بين معنيين متقابلين"، أنهر البلاغة وحسن الصنيع في علمي المعاني والبديع، حمدان مصطفى، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، الطبعة الأولى، 2009م، ص104.

[2] اللغة واللون، أحمد مختار عمر، ص229.

[3] ديوان كعب بن زهير، حققه وشرحه وقدم له: علي فاعور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، 1417هـ، ص45.

لقد رحل الشباب دون عودة، وحلّ الشيب مكانه، فتحوّل لون شعره الأسود إلى لون أبيض غير مرغوب فيه، فيتأسف الشاعر على أيام شبابه عندما كان فارساً شُجاعاً يتميّز بالقوة والإقدام، أمّا الآن فقد أصبح شيخاً عجوزاً ضعيفاً، لا يقوى على فعل شيء سوى انتظار قدره المحتوم وهو الموت.

اللون الأسود دلالة إيجابية بوصفه مرحلة الشباب التي عاشها الشاعر، وهذا ما جعله يفضل السواد على البياض الذي أصبح كناية عن مرحلة الشيخوخة التي ألمّت به، فعبّر عن التقابل بين القوة والضعف من خلال التضاد اللوني بين السواد والبياض الذي ترك أثراً عميقاً في نفس الشاعر.

كما نُلاحظ خروج اللون الأسود عن معانيه الأساسية إلى دلالات متنوعة مخالفة لما نعرفه، ونجد ذلك عند الشاعر أبي العتاهية الذي يتحسر على شبابه وأيامه الماضية، في قوله:

قَلَبَ الزمانُ سوادَ رأسِكَ أبيضاً، ونعاكَ جسمُكَ رِقّةً، وتقبُّضا[1]

ورد الطباق بين اللونين (سواد، أبيض)، فسواد الشعر في هذا البيت مُحبّب إلى النفس والعين؛ لأنّه يحمل معاني القوة والحيوية والشباب، فهذا السواد ينبثق من جمالية الظلمة التي سيطرت بظلامها على الشعر لتمزج الشباب بالقوة والنشاط، فأصبح اللون الأسود يرمز إلى الأمل والحياة، ثم يدور الزمان فتتغير دلالة اللون الأبيض إلى الإحساس بالضعف والانهزام واليأس والوهن، مما يشكل انهزاماً نفسياً يستدعي الخوف وانقطاع الأمل من الحياة؛ لأنّه يرمز إلى دنو الأجل واقتراب الموت لما فيه من دلالات سلبية تسبب ضيق نفسي يسيطر على عاطفته المتوجعة، فالشيب نذير شؤم وخوف من المجهول، فيُصبح الإنسان كئيباً حزيناً وتتلاشى قواه، ويُعاني عذاباً نفسياً وجسدياً نتيجة

[1] ديوان أبي العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1406هـ، ص240.

إحساس قاتل بالضعف والاستسلام بحرقة وألم وأرق وتعب تحسُّراً على فقد الشباب الذي عبّر عنه تعبيراً لونياً حزيناً.

نُلاحظ أنّ التضاد بين الأبيض والأسود يُساعد في تجلية المعنى المقصود وتوضيحه؛ لأنّ "من شرط الضدين أن يكونا من جنس واحد، كالبياض والسواد، فإنّهما يجتمعان في اللونية، وإذا كان النوعان المتعادلان لا يختلفان إلا في صفة واحدة موجودة في أحدهما معدومة في الآخر كان التضاد بينهما ثابتاً، كاللونين المتكاملين فإنّه كلما كان أحدهما إلى أخيه أقرب كان التضاد بينهما أعظم"[1].

وقد طابق المعري بين اللونين مُظهِراً التناقض الواضح في المعنى الذي يحمله كل منهما:

كم أُعاني للدّهرِ بيضاً وسوداً بين خُضرٍ من السنينَ وحُمرِ[2]

نُلاحظ تشابك خيوط الألوان التي تربط بين الأبيض والأسود، فيضم أحدهما إلى الآخر، ويتحدان معاً ويستقران في نفسه المضطربة المتوترة التي يتمنى لها الهدوء والاستقرار، ويرمز إلى أيامه الهادئة بالبيض للدلالة على السكون، وإلى أيامه القاسية بالسود للدلالة على الحزن والتشاؤم والكآبة والمُعاناة والظلام الطاغي على القلب الذي يرمز إلى فقدان الحياة، وتظهر جمالية المعنى أمام الثنائية الضدية (بيض، سود)؛ لأنّ الضد يُظهِر حسنه الضد، فالبيض ضوء الأيام، والسود ظلام الليالي، إضافة إلى (خضر) التي تدل على السنين المُخصبة، و (حمر) التي ترمز إلى الأعوام المُجدبة، وكأنّ هذا البيت يتضمن لون بديعي بلاغي هو اللف والنشر، فقد تمثّل اللف في (بيض، سود)، وجاء النشر مُتسلسلاً على ترتيب اللف (خضر، حمر)، فاللف هيّأ أذهاننا ونفوسنا

[1] المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، 285/1.

[2] ديوان اللزوميات، أبو العلاء المعري، تحقيق: أمين عبدالعزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 426/1.

لمعرفة ما سيذكر بعده من النشر العائد على اللف، فعاد بكلمة (خضر) إلى (بيض) حين ردّ السنين المُخصبة إلى أيامه البيض، كما عاد أيضاً بنشر (حمر) إلى (سود) وذلك بربطه السنين المجدبة بأيامه السود، وما فيها من ألم وعذاب يزيد شدّة وثقلاً على نفس الشاعر، فوقع في النفوس موقعه عن طريق لف مرتب ليتم المعنى المُراد عندما ردّ كل لون من الشطر الثاني إلى اللون الذي يُناسبه من الشطر الأول، فتظهر جمالية اللف والنشر في المتعة واللذة التي نشعر بها أثناء اكتشاف العلاقة بين كل لون واللون الآخر المرتبط به لإعطاء بعداً جمالياً عن طريق التشويق الحاصل أثناء التحليل والتفسير لإيضاح المعنى المقصود.

اللون الأصفر:

"قوي، عنيف، حاد إلى درجة تمكنه أن يكون ثاقباً، أو رحباً باهراً، وهو الأكثر دفئاً، الأكثر بوحاً، الأكثر تأججاً واتقاداً من بين الألوان، يصعب إخماده أو تخفيفه"[1]، ويدل اللون الأصفر على الذكاء وجذب الانتباه ولفت الأنظار؛ لأنّه لون "مُرتبط بالتحفز، والتهيؤ للنشاط، وأهم خصائصه اللمعان والإشعاع والإثارة والانشراح"[2]، وهو أكثر الألوان فرحاً؛ لأنّه لون مُبهج ومتوهج ومشرق، بوصفه لون الشمس مصدر الضوء والنور والدفء والحياة والنشاط والجمال، وهذا ما نجده عند الشاعر وضاح اليمن الذي يصوّر الملامح الجمالية للمرأة، فيقول:

تذكّرَ سلمى وَهْيَ نازحةٌ فحنّْ وهلْ تنفعُ الذكرى إذا اغتربَ الوطنْ

ألمْ ترَها صفراءَ رُؤْداً شبابُها أسيلةَ مجرى الدمعِ كالشّادنِ الأغنْ[3]

[1] الألوان، كلود عبيد، ص107.

[2] اللغة واللون، أحمد مختار عمر، ص229.

[3] ديوان وضاح اليمن، جمعه وقدّم له: محمد خير البقاعي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م، ص96.

لقد تذكر سلمى، فقتله حنينه إليها؛ لأنّها بعيدة ويستحيل الوصول إليها، ولكنّ الذكرى لا تنفع بعد الهجر والفراق، ثم ينتقل لتصوير لقطات الجمال عن طريق رسم لوحة شعرية لطيفة، فيبدأ كلامه باستفهام إنكاري غرضه التقرير (ألم ترها)، أي لقد رأيت جمال لونها، فهي (صفراء) مشرقة متوهجة كتوهج أشعة الشمس، فاللون الأصفر يعكس بعداً جمالياً في صفات المحبوبة ذات اللون الأصفر، وفي ذلك كناية عن قوة لمعانها وإشراقها؛ لأنها رمز الصفاء والبهاء والسطوع والنورانية، بوصفها تمنح من حولها بريقاً لامعاً مُضيئاً مُثيراً للتفاؤل والقوة، فهي حسنة الشباب ناعمة الخد الأسيل المستوي كولد الظبية الأغن الذي يُخرِج غنّة مميزة لها تأثير في النفوس.

وقد يحمل اللون الأصفر دلالات سلبية تُوحي بالاعتدال لسبب من الأسباب، فربما يصل به الأمر إلى الجنون أو التشرُّد أو الموت، وذلك في قول أبي العلاء المعري:

إذا اصفرَّ الفتى لفراقِ روحٍ فأهونْ بالتّصعلكِ والشحوبِ[1]

(اصفرَّ الفتى) أي اكتسى وجهه بالصفرة، فقد ورد اللون الأصفر في هذا البيت للدلالة على المرض والذبول والشحوب والجفاف، وهو لون العاشق المريض من شدة التعب والهيام، فينهار الإنسان ويُصاب بالخمول عند تجرُّعه غُصص البعد وألم الفراق، فتظهر عليه ملامح اليأس والشقاء حين تتوجع الروح ويموت القلب ألماً وحزناً على فقد عزيز لن يعود أبداً، ففي ذكر اللون (الأصفر) كناية[2] عن مرض الجوارح وشحوبها وقلقها إثر لوعة الفراق الذي يُسبِّب مرض الروح والجسد.

[1] ديوان اللزوميات، أبو العلاء المعري، 129/1.

[2] الكناية "لفظ أُريد به لازم معنى مع جواز إرادة معناه حينئذٍ"، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد (739هـ)، وضع حواشي: محمد إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م، ص241.

هذا اللون الأصفر يُعبّر عن مشاعر الأسى الصادرة عن نفس مُتألمة بسبب أثر عمق المأساة وهول المعاناة التي تُخرِج الآهات من القلب في صورة إنسانية شكّلت غصّة في نفسه إثر الفقد وشدّة التوجع أمام قوة المصاب والفاجعة التي جعلت شعره ممتزجاً بحرقة مؤلمة صادرة عن أعماق أعماقه نتيجة ضعفه واضطرابه مما جناه من لوعة الفراق وشدّة الوجد لحظة الفقد.

وربما يرمز اللون الأصفر إلى دلالة تُكسب صاحبها رؤية جمالية تترك أثراً عميقاً في النفوس، وهذا ما نجده في شعر ابن عبد ربه الأندلسي، في قوله:

بيضاء أنماها النعيم بصفرة فكأنما شمس بغير شعاع[1]

يرسم الشاعر لوحة إشراقية للمحبوبة البيضاء المشربة بصفرة تجعلها أكثر إضاءة من خلال صورة كوكبية نورانية يشبّه فيها لون بياض محبوبته الذي تشوبه صفرة بصورة الشمس المجردة من أشعّتها؛ لأنّ امتزاج الصفرة مع البياض يمنح صورة المحبوبة بُعداً جمالياً، يؤكد نعومة الجلد الأبيض لتُصبح المحبوبة أكثر نورانية، كالشمس بوصفها مصدر الضوء، فالشاعر هنا يتذوق جمال المحبوبة عن طريق مقارنتها بالشمس.

اللون الأخضر:

"الأخضر قيمة معتدلة، وسطية بين الساخن والبارد، والعالي والهابط، وهو لون مسكن، مُنعش وإنساني"[2]، فهو لون يُبهِج النفوس ويسرّ القلوب؛ لأنّه يرتبط بالخصب النابع من جمال الطبيعة وخضرة النبات التي تعكس صورتها على الإنسان، فتُماثل مرحلة الشباب الذي يُوحي بالأمل والتفاؤل.

[1] ديوان ابن عبد ربه، ابن عبد ربه، جمعه وحققه: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1979م، ص108.

[2] الألوان، كلود عبيد، ص91.

واللون الأخضر لون الأشجار والغابات والصفاء والطبيعة، وذلك خلاف ما ورد في شعر امرئ القيس الذي استخدم الأخضر بشكل مُتناقض لما عرفناه، في قوله:

فأوردها من آخرِ الليل مَشرَباً بلائقَ خُضراً ماؤهنَّ قَليصُ[1]

في هذا البيت خرج اللون الأخضر عن المألوف إلى دلالات سلبية تدلّ على عدم صلاحية هذا الماء للشرب، فأتى بكلمة خضر كناية عن تلوّث الماء وتعكيره بسبب شدّة القتال مع هذا البطل المغوار، وشجاعة هذا الفارس الذي يخوض المعارك، فينزل إلى ساحات القتال دون رهبة أو خوف من العواقب.

واللون الأخضر من أجمل الألوان وأكثرها قرباً إلى قلوب الناس؛ لأنّها لون الحدائق والغابات، فهي تريح الناظرين وتُعطي الإحساس بالطمأنينة، وتقلل من الشعور بالكآبة والتوتر والتشاؤم، كما في قول أبي العتاهية:

لهفي على وَرَقِ الشبابِ، وغصونِهِ الخُضرِ الرطابِ[2]

يتحسر الشاعر على أجمل أيام شبابه اليانعة الخضراء التي تمنح شعوراً بالهدوء والسكينة، أيام الراحة والجمال، فالأخضر لون الحياة والخلود والتجدد والخير، وله دلالات مُشعّة تتجه نحو النضارة والخصوبة، بوصفه لون هادئ ومُريح للأعصاب، وخاصة عندما يتذكر أيام الشباب والنمو والتفاؤل؛ لأنّ (غصونه الخضر الرطاب) كناية عن النشاط والتجدُّد والحيوية، فاللون الأخضر يمنح الشاعر إحساساً مميزاً تنبض فيه روح شفافة تضجّ بالحيوية والحركة التي تجذب النفوس، فجعل أيام شبابه خضراء لنشعر وكأنّ الطبيعة تتجسد داخله تجسُّداً إنسانياً تنفث فيها روح الحياة وكأنّها إنسان شاب يتأسف على رحيله إلى غير رجعة.

[1] ديوان امرئ القيس، ص182.

[2] ديوان أبي العتاهية، ص68.

اللون الأزرق:

وهو لون الهدوء والسكينة والحكمة؛ لأنّه يُوحي بالتفكير والتأمل الباطني، وله درجات مُتفاوتة؛ لأنّ "القاتم منه يدلّ على الخمول والكسل والهدوء والراحة، أما الفاتح فيعكس الثقة والبراءة والشباب، والأزرق العميق يدلّ على التميز والشعور بالمسؤولية"[1]، وله دلالات إيجابية متنوعة، فقد يحمل معنى القوة والشدة، وهذا ما نراه عند الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد الذي يُعبّر عن شجاعته وغضبه، في قوله:

عواليَ زُرقاً من رماحٍ رُدينةٍ هريرَ الكلابِ يتَّقينَ الأفاعيا[2]

يُصوّر الشاعر تأثير الرماح الزرقاء وما تركته من خوف وهلع في نفوس الأعداء، معبّراً عن الاستبشار بالنصر على الجبناء الهاربين لدى رؤيتهم الرماح كهروب الكلاب رعباً من رؤية الأفاعي؛ لأنّ في زرقة الرماح كناية عن القوة والعزم والإصرار، فالشاعر يُضفي على الرماح صفات تدل على ما يحمله أصحابها من قوة وعزّة وقيم يتسمون بها؛ لأنّ هذه السمات تنتقل إلى حاملها، وتُضفي عليه صفاتها، لتوحي بالقوة الخارقة التي يتمتعون بها.

إنّها رماح زرقاء حادة لامرأة تُنسب إليها الرماح، وهذا ما جعل الأعداء متوترين مضطربين، فيتقون الشاعر وقومه لمجرد رؤيتهم تلك الرماح، ويهرعون ذعراً كما تهرب الكلاب خوفاً من الأفاعي، فقد رسم الشاعر طريقة هروب الأعداء في صورة حركية مخيفة شديدة الرعب لدى رؤيتهم منظر الرماح الردينية، مُعبّراً عن قساوة الموقف، والشعور بالرهبة، وبث الروع في النفوس.

[1] اللغة واللون، أحمد مختار عمر، ص228.

[2] ديوان عنترة بن شداد، عنترة بن شداد، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 2004م، ص63.

فاللون الأزرق هو لون الهدوء والسكينة، فهو لون الماء والسماء التي لا حدود لها، بوصفه يدلّ على التأمل والتفكير العميق، فهذا الشاعر كعب بن زهير يصف البازي الذي يفزع القطاة ويجعلها تسرع في سيرها خوفاً من إقدامه على اصطيادها:

شهمٌ يكبُّ القطا الكُدْريَّ مُختضب الـ أظفار حُرٌّ ترى في عينه زرقا[1]

يصوّر الشاعر مشهداً تفصيليّاً يتضمن صورة حركية يقوم بها البازي الذكي وهو يصرع القطا التي أدماها الصيد، ويستمر في ذكر تفاصيل البازي الذي تلوّنت عيناه باللون الأزرق، وهو كناية عن لون السماء الواسعة، هذا اللون الذي استدعى الشاعر للتأمل الطويل في عينيه الزرقاوين، تأمُّلاً جمالياً له علاقة مباشرة برؤية الشاعر لهذا اللون الذي يمنحه دلالة مطلقة تكمن وراءها خفايا ودلالات تتعلق بشخصية البازي التي تميزه عن غيره من الناس.

اللون الأحمر:

"الأحمر هو لون الروح، لون الشهوة، لون القلب"[2]، وهو لون الطاقة والحيوية والبهجة؛ لأنّه "يرمز إلى العاطفة والرغبة البدائية والنشاط الجنسي وكل أنواع الشهوة"[3].

ونتفاجأ حين نجد أنّ اللون الأحمر هو من الألوان المُضادة للأبيض الذي دلّ على الكرم عند الشاعر كثير عزة خلال حديثنا عن دلالات اللون الأبيض في بداية البحث، ولكننا نُلاحظ الآن وجود تناقض لهذا اللون في شعر عروة بن حزام الذي استخدم اللون الأحمر بدلالته على البخل المُناقض للكرم:

[1] ديوان كعب بن زهير، ص58.

[2] الألوان، كلود عبيد، ص74.

[3] اللغة واللون، أحمد مختار عمر، ص229.

يشدّ عليها الباب أحمر لازم عليها زقاقي قرية قد آنت[1]

أتى الشاعر باللون (الأحمر) بقصد الكناية عن البخل، وهذا يدل على غزارة معجمه اللغوي، فقد حاول من خلال الكناية تحديد صفات ذلك الشخص وملامحه فجاء بهذه الصورة الكنائية بوصفها طريقة لفهم روح المعنى، وبثّ فيها رؤيته السلبية إلى ذلك الشخص البخيل.

وأحياناً يكون لون القوة والعنف، فالشاعر ابن حمديس الأندلسي يمدح صاحب الحق المعتمد بن عباد الذي يُغامر بحياته من أجل القضاء على الظلم وإظهار الحق، وذلك في قوله:

ذو يدٍ حمراءَ من قتلهمُ وهي عند الله بيضاءُ اليدِ

تقتدي الأملاكُ في العدل به وهو فيه بأبيه يقتدي[2]

نُلاحظ وجود التضاد اللوني والتناقض بين اللونين (حمراء، بيضاء)، فقد قصد أنّ يد المُعتمد حمراء كناية عن كثرة القتلى أثناء خوضه المعارك، ونزوله ساحات القتال، فتتلطخ اليد باللون الأحمر، وهو لون الدم الذي يُعدُّ سبيلاً للتخلص من الذل وطريقاً للحصول على الكرامة المُنتظرة والانتصار بعد جريان الدم، وشدة المعارك، بفضل قوة المعتمد وشجاعته، أما اليد البيضاء البريئة أمام الله فهي تدل على النقاء الذي لا تشوبه شائبة، فيده طاهرة كروحه الطاهرة البعيدة عن الظلم والعدوان؛ لأنّه رمز الحق والعدل والشهامة والرجولة.

[1] ديوان عروة بن حزام عروة وعفراء، جمع وتحقيق: أنطوان محسن الفوال، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ، ص71.

[2] ديوان ابن حمديس، عبدالجبار بن حمديس (527هـ)، صححه وقدم له: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1960م، ص140.

اللون الوردي:

أثبتت بعض الدراسات "أثر اللون الوردي على نفسية الإنسان، بأنه لون ملطف، يغمرنا بشيء من الحب والحماية، ويخفف الشعور بالوحدة والحساسية، وهو لون الحب غير الأناني"[1]، وقد يمنح هذا اللون شحنة عاطفية عميقة تدلّ على رقة صاحبها من خلال جمل رقيقة صاغها الشاعر قيس بن الملوح في تصويره ملامحها تصويراً جمالياً دقيقاً:

مُبتَّلةٌ هيفاءُ مهضومةُ الحشا مُورَّدة الخدّينِ واضحةُ الثّغرِ[2]

يُقدّم الشاعر مشهداً تفصيليّاً بالتركيز على اللقطات الجمالية التي تصف المرأة وتألقها مع رقة خصرها وضموره؛ لأنّ للخصر دلالات جمالية وجاذبية في إظهار تقاطيع الجسد، فقد بدا إعجاب الشاعر وذهوله حين وصف خدودها الوردية عن طريق تصوير لون وجنة الخد التي ارتسمت على وجهها، وعكست بُعداً جمالياً أعطى صورة لطيفة رقيقة شفافة ترتقي بهذه المرأة إلى مدارج الكمال والإشراق.

يُعطي اللون الوردي أبعاداً دلالية مُتألقة مُشعّة تمنح خيالنا الفياض انبهاراً يُوحي بفطرية التذوق الجمالي للصورة الوردية الواقعية التي تحمل كناية عن توهُّج خدودها واحمرارها، وهي صورة جمالية تُعزز داخلنا إحساساً إنسانياً رقيقاً تهتزّ له أوتار قلوبنا وتُثير أذهاننا أمام هذا اللون المُشرق المُتوهج الذي يزيد إحساسنا بحرارة الانفعال وإشعال العاطفة.

[1] الألوان، كلود عبيد، ص129.

[2] ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح، جمع وتحقيق وشرح: عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، ص155.

اللون البني:

اللون البني هو اللون الأحمر المُعتم الذي تشوبه صفرة، وله معانٍ مُختلفة، وخاصة في لغة الأحلام، وتفسيره "خداع ومكر"[1]، أما في الواقع فهو لون التراب والأرض مصدر الخير والعطاء، وله دلالات إيجابية متنوعة، كما "يقلّ فيه النشاط الضاغط الموجود في الأحمر، ويتجه إلى أن يكون أكثر هدوءاً"[2]، وربما يكتسب هذا اللون أبعاداً جمالية كثيرة توحي بالراحة والتفاؤل، وهذا ما نجده في قول الشاعر أثناء وصفه المرأة بتفاصيلها الدقيقة:

امرأة مضوّأه

فستانها الحرير فضفاضٌ بلا مئزرْ

ذراعها الوردي رطبٌ، ناعمُ المنظرْ

كأنّما الصيف عليها وحدها .. أمطر!

ولحظها ما أبرأه

وخطوها صيحة رملٍ في انسحاب خُفّها

وشعرها البني ناعمٌ على أكتافها

وخصلة من شعرها على الجبين نافرة

لكنها

لم تك إلا عابره![3]

---

[1] الصورة الشعرية والرمز اللوني، يوسف حسن نوفل، دار المعارف، القاهرة، ص22.

[2] اللغة واللون، أحمد مختار عمر، ص186.

[3] ديوان أحمد عبدالمعطي حجازي، أحمد عبد المعطي حجازي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998م، ص239.

صوّر الشاعر اللقطات الجمالية للمرأة في صورة حركية تصف خطواتها وصفاً دقيقاً، مُنتقلاً إلى الصورة البصرية التي ربط فيها بين الشعر واللون البني، فرسم صورة رائعة للشعر الناعم المُنسدل على أكتافها، وهو رمز ساحر للجمال الأنثوي، فاللون الترابي للشعر هو مركز الجمال والتأمل حيث يمنح الشاعر شعور الإعجاب بالمرأة ذات الشعر البني، فحقيقة جمال هذه المرأة تكمن في روعة شعرها الذي أصبح مدعاة للتباهي عند تلك الأنثى التي افتُتِنَ بها الشاعر؛ لأنّ هذا اللون مُحبب للنفوس، وهو كناية عن الحيوية والأمل والنماء والتجدد، بوصفه لون الحياة ولون الأرض الترابي كناية عن عراقة هذه المرأة وأصالتها، فقد جعل الشاعر يعيش حالة شعورية توحي بالذهول والانبهار أمام اللون البني للشعر المُظلم الذي يمنحنا فسحة جمالية نُشارِك فيها الشاعر مشاعره، فنتذوق معه اللذة والمتعة عند رؤية هذا المشهد الذي يجذب نفوسنا ويُثير أحاسيسنا.

وقد تتداخل الألوان في الشعر العربي وتتنوع وتتشابك فيما بينها، وجعل الشعراء من اللون أرضية ملهمة تُثير الخيال وتوقظ المشاعر، وفي هذا دلالة على وجود الوعي الثقافي والفني عند الشعراء الذين يستخدمون اللون كرموز يُعبّرون عن رؤاهم ومواقفهم تجاه الواقع الذي يعيشون فيه.

واللون أسلوب تعبيري جمالي بوصفه هاجس ذاتي يُعبّر عن تجربة واقعية، فهو يتغلغل في ثنايا الكلام، فيُمثّل قوة إيحائية تحمل أبعاداً فكرية لها دلالات مباشرة فتتداخل الألوان فيما بينها؛ لتصوّر تأسّف الشاعر على مرحلة شبابه، وذلك كما ورد في شعر المعري:

وابيضّ ما اخضرَّ من نبت الزمان وكل زرع إذا ما هاج محصودُ[1]

يتحسّر المعري على أيام الشباب المليئة بالقوة والنشاط والحيوية، فيتشاءم من قدوم الشيب الذي يُنذره بالموت واقتراب الأجل، ويجعله يعيش حالة توتر وخوف من الزمن،

[1] ديوان اللزوميات، أبو العلاء المعري، 240/1.

فيُصبح ضعيفاً جسدياً ونفسياً، وتتلاشى قواه التي عبّر عنها باللون (الأبيض) وهو رمز الشيب، ففي قوله (ابيضَّ) دلالة على دخوله مرحلة الشيخوخة، أمّا (اخضرَّ) فهو دليل على وداعه لأيام الفتوة والتفاؤل.

إنّ هذا التقابل الكنائي يدخل ضمن فن التدبيج[1]، فنُلاحظ التقابل بين (ابيضَّ واخضرَّ)، أي بين (الشيخوخة والشباب)، أو بين (الضعف والقوة)، وهو تقابل كنائي يرمز إلى معاناة الشاعر التي رمز إليها بهذه الألوان المُختلفة، فقد حمل الأبيض دلالات سلبية تناقض اللون الأخضر الذي رمز للخصوبة والنماء والتجدد، ويدلّ على قوة الشباب التي رحلت دون عودة، فيُصوّر عمق المعاناة الروحية الممزوجة بألوان الحزن والأسى.

ويفتخر المتنبي بنفسه، فيذكر مناقبه ضمن لغة تعبيرية جمالية يرمز إليها بالألوان، وذلك في قصيدته (ما أحد فوقي ولا أحد مثلي):

وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي أرتك احمرار الموت في مدرج النمل[2]

إنّ (خضرة) الحياة والنعيم الذي يعيش فيه الشاعر يكمن في لون النصل (الأخضر) الذي يستخدمه هذا البطل في سبيل حياة رغيدة بعد خوضه المعارك؛ لأنّ لفظ (احمرار) يدلّ على شدة الموت وبذل الدماء والإقدام والشجاعة.

ظهر فنّ التدبيج[3] من خلال ورود الألوان (خضرة، احمرار) التي تتضمن معانٍ كنائية مُتقابلة، فالاحمرار ممزوج بالدم الذي يُعدّ سبيلاً لعيش حياة الخصب والنعيم.

---

[1] التدبيج "داخل في الطباق؛ لأنّ الألوان أمور متقابلة، فهي جزئيات الطباق، وخصّت باسم (التدبيج) لتخيل وجود ألوان فيها"، معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، دار المنارة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1998م، ص219.

[2] ديوان المتنبي، ص14.

[3] معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، الدار العربية الموسوعات، الطبعة الأولى، بيروت، 2006م، 118/2.

فقد صورت الشاعرة نازك الملائكة حالة قلبها تصويراً دقيقاً مُعبّراً عن استجابته الطبيعية من خلال تداخل الألوان وتشابكها فيما بينها، وذلك في قولها:

ما بين الأحمر والأصفر والأخضر

تضحك يا قلبي، تبكي، تتذكر

وتسيرُ تسيرُ إلى أين

المسعى والظلمةُ ممدوده

والأرض المنشوده

ومروج الفستق والعنبرْ

ونهور الكوثرْ[1]

تمتلك الشاعرة قدرات مُدهشة تُشعِرنا بإدراكها الحسي لهذه الألوان النابعة عن نفاذ البصيرة وصدق العاطفة التي تتغير بتغير الظروف والأزمان، فقد تشكلت رؤية الشاعرة لحالة قلبها من خلال المؤثرات النفسية التي عاشتها، فناسبت بين ثلاثة ألوان (الأحمر والأصفر والأخضر)، ضمن فن مراعاة النظير[2] في عملية تناسب دلالي يوضح التناظر بين الألوان (الأحمر والأصفر والأخضر)، وكأننا نسمع بالأحمر فنتهيّأ ذهنياً لمعرفة ما سيأتي بعده من ألوان، ليكتمل هذا التناسب عند الجمع بين هذه الألفاظ في حقل دلالي واحد هو (حقل الألوان) الذي نلاحظ فيه المتناسبات اللونية، وتتجاور مع بعضها عن طريق التآخي فيما بينها.

[1] الأعمال الشعرية الكاملة، نازك الملائكة، الجزء الثاني، المجلس الأعلى للثقافة، 2002م، ص465.

[2] مراعاة النظير "جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أي وجه من الوجوه"، صناعة الكتابة علم البيان علم البديع، رفيق خليل عطوي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م، ص131.

تُخاطب الشاعرة قلبها عن طريق التجريد[1]، فتجرد منه شخصاً آخر تخاطبه، وتبثه مشاعرها من خلال هذا الأسلوب الذي يُخفي وراءه صراعاً داخلياً عميقاً فتخفف من الضغط النفسي عن طريق صوتها الداخلي الذي استعانت به، فنادت قلبها؛ لتُخرِج أحاسيسها الكامنة في نفسها، ففي اللون (الأحمر) دلالة على تعطشها وشوقها وقوة عاطفتها، ورغبتها في قصة حب تعيشها، ويتضح ذلك من خلال الدفقات الناتجة عن شحنات مشاعرها الصادقة، وحاجتها التي عبّرت عنها من خلال بوح وجداني يفيض به قلبها، ثم أتبعت كلامها باللون (الأصفر) الذي يدل على بعثرة الخواطر وتشتيت الأحاسيس ومرحلة الضياع نتيجة العادات والتقاليد التي تمنعها من تحقيق رغبتها، وهذا يسبب لها حالة الذبول والاصفرار والضعف واليأس، فيعتري قلبها القلق الممزوج بالحيرة والحسرة والألم، ولكنّ الشاعرة تستعيد قوتها، فتُنهي ألوانها باللون الأخضر الذي يدلّ على التفاؤل والتجدُّد والاستمرارية، والأمل بحياة رغيدة يسودها الحب والسعادة والسلام.

ويستخدم عز الدين المناصرة مجموعة ألوان مختلفة تحمل دلالات متنوعة وتعكس مشاعر الحزن والأسى التي يجيش بها صدر الشاعر عند استشهاد صديقه الفلسطيني:

لن يفهمني أحدٌ غير الزيتونْ:

شجرٌ كضفائر أمّي يحميني من مطر الأيام الصعبهْ

أخضرُ، أخضرُ كمياه خليج العقبهْ

وجذوري تنغرسُ وتمشي من بحر الملحِ

إلى بحر الليمونْ

كان شجاعاً صلباً كالزيتونْ

[1] الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص274.

قتلوا في الليل رفيقي

بالأخضر كفّناهُ

بالأحمر كفّناهُ

بالأبيضِ كفّناهْ

بالأسود كفّناهُ

بالأحمر كفّناهُ

بالمثلّث والمستطيلْ

بأسانا الطويل

وعلى الأكتاف حملناهُ[1]

يبدأ الشاعر كلامه بأسلوب خبري من الضرب الابتدائي، وهو أسلوب خالٍ من المؤكدات، فلا يستطيع أحد إنكار ما يقوله خلال وصفه اخضرار شجر الزيتون الذي يُشعره بالأمان كضفائر الأم الحنون التي تحمي صغارها وتضحي من أجلهم، فتعطيهم كل ما بوسعها بدون مقابل؛ لأنّ اخضرار أشجار الزيتون (أخضر، أخضر) كناية عن الخصب والنماء والتجدد كتجدد أمل الشاعر الفلسطيني وتفاؤله في التخلص من الظلم والعدوان الذي يسود أرض الليمون، ثم ينتقل إلى وصف حادثة مقتل رفيقه الذي كان صامداً كصمود شجر الزيتون؛ لأنّ هذه الأشجار توحي بالشموخ الذي يدلّ على شموخ أبناء الشعب الفلسطيني وشجاعتهم، فيُصوّر ثقل المصيبة وهول المصاب والفجيعة بروح

[1] ديوان عزالدين المناصرة، الطبعة الأولى، 1990م، دار العودة، بيروت، ص344-345.

موجوعة، مُخرِجاً الحزن الذي يعتصر قلبه إثر فاجعة الموت واستشهاد البطل في ظلام الليل الدامس.

يرسم الشاعر عزّالدين صورة إنسانية مؤثرة لحالة الظلم والعدوان التي تعرّض لها صديقه الفلسطيني إثر جريمة مرعبة ارتكبها الصهاينة بحق هذا الشاب البطل، معبّراً عن تجربة واقعية معيشة ممتزجة بألوان الأسى والالتياع لدى رؤيتنا مشهد الشباب وهم يتقدمون حاملين ألمهم وأملهم، فيكفّنون رفيقهم الشهيد بالعلم الفلسطيني الذي رمز إليه من خلال الألوان، فاللون (الأخضر) يرمز إلى النماء والخصب والوفرة، أما (الأحمر) فهو لون مرتبط بالدم، ويحمل دلالات العزة والقوة بوصفه ممتزج بدموية البطولات والتضحيات، ويرمز اللون (الأبيض) إلى التفاؤل والأمل بحلول السلام بعد هذه التضحيات، ويُعبّر اللون (الأسود) عن الحزن والموت والفراق والظلام؛ لأنه ينقل صورة الواقع المحسوس والحزن العميق الذي يعيشه أبناء الشعب الفلسطيني.

لقد استطاع الشاعر أن يُعبّر عن عمق المعاناة الروحية لأبناء الشعب الفلسطيني ومواقفهم البطولية من خلال تصوير مشهد الموت الذي رسمه بريشة قلبه الملونة التي حملت دلالات مباشرة وغير مباشرة.

نتائج البحث:

1-لم يكن للتطور الزمني عبر العصور دوراً كبيراً في تغيير دلالة اللون عند الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين والأندلسيين والمعاصرين، وإنّما كانت لمواقفهم النفسية والجمالية والذاتية أثر عميق في تطور هذه الدلالة، فعلى سبيل المثال انتقال معاني اللون الأبيض من التفاؤل والصفاء والنقاء والإشراق إلى التشاؤم وتقدم السن والشيخوخة ودنو الأجل بالإضافة إلى معاني العمى وفقد البصر.

2-وظّف الشعراء العرب الألوان توظيفاً باطنياً معبّراً عن تصوراتهم ورؤاهم وأحاسيسهم وانفعالهم العاطفي والفكري.

3-جعل الشعراء من اللون متنفساً يبثّون فيه مشاعرهم وأفكارهم، بوصفه قوة روحية لها تأثيرات نفسية على الإنسان.

4-تتغير دلالات الألوان تبعاً لتغيّر الحالة الشعورية التي تعبّر عنها هذه الدلالات، وذلك كتناقض معاني الأبيض والأسود حسب ما تقتضيه طبيعة السياق الشعري للشاعر.

5-وردت الألفاظ اللونية عفو الخاطر وفقاً للمؤثرات النفسية التي تسببت في استجابة فطرية نابعة عن الإدراك الحسيّ للتذوق الفني اللوني.

6-حملت الألوان أبعاداً فكرية ونفسية ورمزية وعلمية واجتماعية لها مضمون جمالي، بوصفها أساليب تعبيرية تتفق مع الحالة النفسية للشعراء.

7-تأثر الشعراء باللون فانفعلوا به وتفاعلوا معه؛ لأنّه يرتبط بحياتهم ارتباطاً عميقاً، بوصفه مصوّراً لواقعهم وحالاتهم بما يحمله من أبعاد نفسية ذات دلالات متنوعة.

8-طوّر الشعراء العرب دلالات المفردة اللونية المعبرة عن حالاتهم، فكشفوا عن دور الألوان في بيان الذائقة الجمالية التي تؤكد وعيهم الجمالي خلال تجسيدهم لواقعهم وتصوير رؤاهم للحياة.

قائمة المصادر والمراجع:

-إسماعيل، عزالدين، التفسير النفسي للأدب، الطبعة الرابعة، مكتبة غريب.

-الأسود، كثير بن عبدالرحمن، ديوان كثير عزوة، جمعه وشرحه: إحسان عباس، 1391هـ، دار الثقافة، بيروت.

-حجازي، أحمد عبدالمعطي، ديوان أحمد عبدالمعطي حجازي، 1998م، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة.

-حزام، عروة، ديوان عروة بن حزام عروة وعفراء، جمع وتحقيق: أنطوان محسن الفوال، 1416هـ، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت.

-حمديس، عبدالجبار، ديوان عبدالجبار بن حمديس (527هـ)، صححه وقدم له: إحسان عباس، 1960م، دار صادر، بيروت.

-زهير، كعب، ديوان كعب بن زهير، حققه وشرحه وقدم له: علي فاعور، منشورات محمد علي بيضون، 1417هـ، دار الكتب العلمية، لبنان.

-شداد، عنترة، ديوان عنترة بن شداد، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، 2004م، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت.

-صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

-طبانة، بدوي، معجم البلاغة العربية، 1998م، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع.

-عبد ربه، أبو عمر أحمد، ديوان ابن عبد ربه، جمعه وحققه: محمد رضوان الداية، 1979م، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت.

-عبدالغني، خالد محمد، سيكولوجية الألوان "دلالات التفضيل لدى العاديين والمرضى النفسيين والفئات الخاصة"، 2015م، الطبعة الأولى، الوراق للنشر والتوزيع، الأردن.

-عبدالوهاب، شكري، الإضاءة المسرحية، 1985م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

-عبيد، كلود، الألوان (دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، دلالتها)، مراجعة وتقديم: محمد حمود، 1434هـ، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

-عطوي، رفيق خليل، صناعة الكتابة علم البيان علم البديع، 1989م، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين.

-عمر، أحمد مختار، اللغة واللون، 1997م، الطبعة الثانية، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة.

-القزويني، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن الخطيب القزويني (739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، 2003م، الطبعة الأولى، وضع حواشيه: محمد إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.

-القيس، امرؤ، ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1389هـ، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة.

-كيسان، إسماعيل بن القاسم بن سويد، ديوان أبي العتاهية، 1406، كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر.

-المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، ديوان المتنبي، 1983م، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

-المصري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

-المصري، ابن أبي الإصبع (654هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وإعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، 1995م، الطبعة الثانية، دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة.

-مصطفى، حمدان، أنهر البلاغة وحسن الصنيع في علمي المعاني والبديع، 2009م، الطبعة الأولى، شركة نوابغ الفكر، القاهرة.

-مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، 2006م، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت.

-المعري، أبو العلاء، ديوان اللزوميات، تحقيق: أمين عبدالعزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

-الملائكة، نازك، الأعمال الشعرية الكاملة، 2002م، المجلس الأعلى للثقافة.

-الملوح، قيس، ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح: عبدالستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة.

-المناصرة، عزالدين، ديوان عز الدين المناصرة، 1990م، الطبعة الأولى، دار العودة، بيروت.

-نوفل، يوسف حسن، الصورة الشعرية والرمز اللوني، دار المعارف، القاهرة.

-اليمن، وضاح، ديوان وضاح اليمن، جمعه وقدم له: محمد خير البقاعي، 1996م، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت.